Issn:2572-0023

تطور مهام البحرية الجزائرية من الجهاد البحري إلى القرصنة البحرية

أ/زيتوني حمزة إسحاق
جامعة عبد الحميد مهري-قسنطينة-
isak.barbarous@gmail.com

الملخص:

شهدت البحرية الجزائريّة تطورات عدة عبر ثلاثة قرون خلال الحقبة العثمانية، غير أنّ هذا التّطور لم يكن بين عشيّة وضحاها، بل كان نتيجة تطوّرات سياسيّة، واقتصاديّة، واجتماعيّة شملت الجزائر وكل الدول المؤثرة في العلاقات الدولية، وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ البحريّة الجزائريّة وسمت بأبعاد مختلف في مراحله معينة، فقد وسمت في بدايات نشأتها ببعد ديني خاصة وأنها ولدت في ظل صراع ميزه الحمية الدينية، ولكن وبعد أن وضعت الحرب أوزارها بين الخلافة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية، وسمت الحروب البحرية بين دول حوض المتوسط بطابع اقتصادي فأضحت الثروة التي غذتها تجارة الرقيق والأسر، والاستيلاء على السفن المحملة بالذهب والفضة ومختلف السلع حافزا كبيرا لاستفحال ظاهرة القرصنة التي طفا عليها مظاهر البحث على تحقيق المكاسب المادية، هذا ما ميز البحرية الجزائرية خلال هذه المرحلة.

الكلمات المفتاحية: البحرية الجزائرية، القرصنة، البحر الأبيض المتوسط، تفعيل الاقتصاد الوطني.

Résumé:

La marine algérienne a été témoin de plusieurs évolutions sur trois siècles au cours de la période ottomane, mais elle s'est déroulée dans la nuit, en raison de l'évolution politique, économique et sociale qui a affecté l'Algérie et tous les pays influents dans les relations internationales. À ses débuts, elle se caractérisait par une dimension religieuse, d'autant plus qu'elle

était née dans un conflit caractérisé par un régime religieux, mais après la guerre entre le califat ottoman et l'empire espagnol, les guerres maritimes entre les pays méditerranéens étaient caractérisées par un caractère économique. Alimentés par la traite négrière et les familles et la saisie de navires chargés d'or, d'argent et de divers produits de base, ils ont fortement incité à intensifier le phénomène de la piraterie, qui a dominé les manifestations de la recherche de gains matériels qui ont caractérisé la marine algérienne à ce stade.

les mots clés:

Marine algérienne, Le piratage, La mer méditerranée, Activation de l'économie nationale.

مقدمة

أسّست الدولة الجزائر الحديثة مع مستهل القرن السادس عشر لتكون دولة بحريّة بالدّرجة الأولى فكان مفتاح عظمتها في "عصر القرصنة" يكمن في بحريّتها [1] التي أطرت سياستها الخارجيّة وطبعت دبلوماسيتها بطابع حاد انبرى عنه بروز شخصية الجزائر الدولية التي أحيطت بهالة من الهيبة والرهبة من جراء فعالية بحريتها [2] التي لا تكف على تجرئها في مواجهة أعظم بحريات الدول الأوربية مهما كانت قوتها. ولقد تمكنت الجزائر من الصمود في ظل صراع دولي لا يرحم محموم بالنزعة الدينية، بل كانت طرفا من أطراف الصراع منذ أيامها الأولى من تأسيسها، كيف لا وهي التي ولدت من رحم الحروب الصليبية، وتغذت في حجر الحمية الدينية، وترعرعت في كنف عصر تستعبد فيه الدول الضعيفة، وتسحق فيه الدول القوية، ورغم ذلك تمكنت من الصمود والاستمرار، بل أكثر من ذلك أنها تحدت أعظم الإمبراطوريات المسيحية واستمرت عبر ثلاث قرون، وما كان هذا ليكون لولا قوة بحريتها التي جعلت الجزائر رقما أساسيا في معادلة القوى التي أطرت العالم [3]. وتمكنت الجزائر عن طريق بحريتها أن يكون لها صدا عالمي فكل دولة تجارية تعتمد على الملاحة البحرية في نمو اقتصادها إلا وكانت مجبرة على ربط علاقات سلمية مع الجزائر بهدف حماية أساطيلها التجارية التي تجوب المحيطات

والبحار من هجمات البحرية الجزائرية، التي تعتبر بموجب قوانين ذلك العصر أن كل سفينة بحرية هي غنيمة شرعية إن لم يكن صاحبها تربط دولته بمعاهدة صداقة ووئام مع الجزائر [4]، ومن هنا تبرز أهمية البحريّة الجزائريّة ودورها في التأثير على العلاقات الجزائريّة بدول العالم، خاصة وان قوة الدولة الجزائرية في هذا العصر كانت منبثقة من قوة بحريتها، فكل ضعف يمس البحرية الجزائرية إلا وانجر عنه انتكاسٌ اقتصادي، وتدهورٌ اجتماعي، وضعفٌ دبلوماسي، وبالرغم من ذلك فقد أدت البحرية الجزائرية دور ريادي مقارنة مع مختلف البحريات الإسلامية، بل كانت الأكثر نظاما وتنظيما، وتمكنت في المرحلة التي وصلت إلى أوج قوتها من أن تكون أكثر فعالية وقوة من البحرية العثمانية نفسها، وشفيعنا في هذا ما نقله لنا السفير المغربي "**التمقروتي**" أثناء إقامته بمدينة الجزائر في سنة 1584م، عندما كلِّف هذا السفير بمهمة إلى اسطنبول من طرف السلطان أحمد المنصور (1578- 1603م) وقد لاحظ أثناء زيارته للمدينة، قوة النظام الدفاعي لها، وكثرة المجندين بالإضافة إلى ضخامة الأسطول البحري بالميناء، إذ يقول: " **يتصف رياس البحر في الجزائر بالشجاعة واليقظة المستمرة ومعرفتهم الجيدة بأمور البحر، إنهم متفوقون بكثرة عن رياس البحر في اسطنبول، وهم بذلك يرهبون الأعداء أثناء المواجهات البحرية أكثر من رياس القسطنطينية الذين تنقصهم التجربة والشكيمة**" [5]، وبالفعل فقد كانت البواخر الجزائرية حينذاك تسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط، وعلى مضيق جبل طارق، ثم مددت نشاطها شمالا حتى بلغت شواطئ بريطانيا وإيرلندا وايزلندا، وفي هذا يقول أحد القساوسة الذين عاصروا هذه الفترة أن الجزائر كانت تمتلك أقوى قوة بحرية يمكن أن تتصورها في ذلك الحين "**إنها عبارة عن سبعين باخرة حربية كل واحدة منها مجهزة بما بين خمسة وعشرين وأربعين مدفعا، وهذا عدا البواخر المتوسطة والصغيرة**" [6].

أولا– تطور مهام البحرية الجزائرية وتعاطيها للقرصنة

شهد القرن السادس عشر ميلاد قوتين عظيمتين متنافرتين ايدولوجيا وهما الخلافة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية، فان كانت إسبانيا ملكة للبحر فقد كانت الخلافة العثمانية

رعب البر، ولهذا اعتبر بروديل أن هذين العملاقين الذين انبثقا مع مطلع القرن السادس عشر مأساة للبحر الأبيض المتوسط، لأنهما كانا سببا في أغلب المواجهات التي عرفتها الدول المشرفة على هذا الحوض طيلة قرن ونصف القرن [7] وبهذا انبثق من جديد الصراع الذي بدا أزليا بين الإسلام والصليبية.

أشرف الصراع المحتدم بين الإمبراطورية الإسبانية المتعصبة للروح الصليبية والخلافة العثمانيّة حامية الأقطار الإسلامية على نهايته، لقد كان فتح تونس في سنة 1574م، آخر عملية كبرى للأسطول العثماني في الأقطار المغاربية، أما الإسبان من جهتهم فقد حوّلوا أنظارهم إلى أفاق أخرى ونتيجة لهذه الظروف، ولأول مرّة تمكّن كلّ من الإسبان والعثمانيين من التوصل إلى اتفاق هدنة ثم معاهدة سلام سنة 1577م بطلب من إسبانيا. ولقد وضعت هذه المعاهدة حدا للحروب الضروس التي أنهكت الإمبراطوريتين بعد أن كلفت المعسكرين خسائر باهظة من الرّجال والعتاد. فكانت مسؤولة إلى حد كبير عن الإفلاس المالي الذي أصاب كلا الإمبراطوريتين. وفي هذا يقول المؤرّخ الجزائري المنور، مروش: "...**إنّ الجهود الهائلة التي تطلّبتها رغبتهما النهمة في فتح أقاليم واسعة كانت في نظرهما مظهرا للعظمة والمجد الإمبريالي، هذه الجهود أنهكت القوى وغرست بذور التدهور والانحطاط في هذا الجسم المتضخم**" [8]. ولقد كان نشاط البحرية الجزائرية منحصرا في عمليات الجهاد البحري، في ظل الصراع الديني بين الهلال والصليب، ولكن وفي نهاية المطاف تطورت البحرية، وتوطّدت وصارت تمثل النشاط الأساسي والمحوري للجزائر، إنّها تشغل قطاعا هاما من الحياة الاقتصاديّة، ونمّت حولها فئة اجتماعية ذات نفوذ قوي، وكأنّها بقصد تغطية تحوّلها إلى مؤسسة مركنتلية وأممية، ركّزت خطابها العام على أمجاد الجهاد ضد الكفّار [9]، وفي هذا يقول المؤرخ الفرنسي "هانري غارو": "**.... إن القرصنة الإسلامية المنظمة ظهرت في بادئها كمشروع للرد على فرسان النصارى، الذين ظلوا يتصرفون تصرفات الحروب الصليبية، ثم سرعان ما تحولت في مملكة الجزائر إلى مؤسسة دائمة، يصب ريعها في ميزانية الدولة**" [10].

لم يكن هذا التحول في مهام البحرية الجزائرية من الجهاد البحري إلى تفعيل الاقتصاد الوطني بين عشيّة وضحاها، بل كان نتيجة الإرهاصات التدريجيّة، التي بدأت مع نهاية الحروب الدّينية التي خاضتها الخلافة العثمانيّة المدعّمة ببيلربايات الجزائر ضدّ أوربا المسيحيّة، لقد انعكس هذا الصراع بالإيجاب على الاقتصاد الجزائري فنما وتطور وازدهر في ظل النشاط الجهادي للبحرية، كما تطورت هذه الأخير بفعل تأثير عدة عوامل جديدة، ففي حين كانت عناصر البحريّة الجزائريّة مكونة من الجزائريين والعثمانيين في ظل الصراع الديني، تغيرت هذه البنية بعد أن غلب على نشاط البحرية الطابع الاقتصادي فبدأت تتسرب إليها عناصر من سكان الضفة الشمالية للبحر المتوسط، والمناطق الشمالية التي أدخلت معها تكتيكا جديدا وأشرعة حديثة، وهندسة متطورة في بناء السفن مما ساعدها على اجتياز البحر المتوسط وولوجها للمحيط [11]، هذا المحيط الذي كان ينبض بالحياة جرّاء انتعاش الملاحة التجاريّة فيه وكثرة القوافل المحملة بالذهب والفضة القادمة من العالم الجديد المتوجهة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، فكان من أهم أسباب التحوّل في مهام البحريّة الجزائريّة الوفرة الاقتصاديّة للمتوسط والمحيط الأطلسي، والتي استمرت إلى ما بعد منتصف القرن السابع عشر [12]، فبدأت البحريّة الجزائريّة تتحول شيئا فشيئا نحو الغزو البحري الذي كان الهدف من ورائه هو القيمة الاقتصادية، ومن هنا بدأت البحرية الجزائرية تطبع بطابع اقتصادي، فغدت القرصنة الجزائرية تتمحور بشكل أساسي حول فكرة الغنائم الجيّدة والثمينة، خاصة بعدما احتضنت ورعت المغامرين الأوربيين الرّاغبين في الثراء السريع [13].

لقد ساهم احتكار الأوربيين للتجارة العالميّة، وإقصاؤهم لأيّ نشاط تجاري تتعاطاه الجزائر، في نموّ وتطوّر قرصنة الجزائريّة لتنال بها نصيبها المشروع من التّجارة العالميّة، وفي هذا يقول عبد القادر جغلول: " ... **إنّ القرصنة لا تعبر تماما بصورة ارتدادية عن إرادة التواصل لأوليجاركية [14] التركية مع الطبقات السائدة مع دول المغرب العربي الوسطويّة (الجزائر). وفي الحقيقة، تشكّل هذه التجارة المضادة (القرصنة) ردّا على الاحتكار الذي تتمتع به السفن الأوربيّة في البحر الأبيض الغربي. كما أنّها (أي القرصنة) نوع من إعادة توزيع**

الأرباح التجاريّة في إطار الحصار المفروض من البرجوازيّة التجاريّة الأوربيّة على البحريّة التجاريّة الجزائريّة." [15] ثم يضيف معقبا على حكمه هذا بقوله: " **وقد وفّرت القرصنة مواردَ مالية ضخمة مدة قرن كامل. ففي عام 1623م كان الأسطول الجزائري يستطيع أن يجمع سبعين سفينة شراعية. وأثناء الحرب ضد فرنسا (1631-1629م) أستطاع القراصنة الجزائريون أن يستولوا على 80 سفينة فرنسية محملة بأنواع مختلفة من البضائع، وأسروا ما يزيد على ألفين وثلاثمائة أسير** [16]. **وقد بلغت مكاسب هذه الحرب المليارات من الفرنكات القديمة**" [17].

أما حسن أميلي يفسر بروز ظاهرة تعاطي الشعوب للقرصنة كأسلوب لتفعيل الاقتصاد، وإن كانت الجزائر إحدى حلقاته فيقول: " **ليست الأعمال العدائية البحرية وليدة العصور الحديثة، وإنما كان انطلاقها مع ما خلقه استقرار الإنسان من تمركز اجتماعي فرض عليه نسج العلاقات الاقتصادية بين مراكز الإنتاج والتسويق بعدما نجح في استغلال المجال البحري لتحقيق التبادل التجاري بين مناطق الوفرة ومناطق الخصاص، وقد كان من شأن هذا أن يحدث مصالح متناقضة بين المجتمعات إنتاجية تملك بنيات الإنتاج أو على الأقل وسائل النقل وخاصة البحرية منها، وأخرى مفتقرة إليها تمنعها من شروط المنافسة الأولى، وتركز ذلك حتى على مستوى تباعد مصالح الأفراد، مما كان يشكل بواعث كافية لقيام رجال وجدوا ضالتهم في عرقلة تنقل البضائع ...**" [18] . أضحت القرصنة حلقة أساسية في الحركة التجارية العالمية، إذ بدأ نشاطها يغذي المبادلات التجارية في حوض المتوسط وحتى بين ضفتي المحيط الأطلسي، لقد كان قانون القرصنة يقضي بوجود التبادل التجاري الذي كان يعتمد أساسا على صرف السلع المحتكرة و بيع الأسرى، فلم تكن الجزائر مرسى لنشاط القراصنة إلا بكونها مركزا تجاريا نشيطا [19]، كما كان رياس البحر يمثّلون مصدر رزق للتّجار الذين كانوا ينتظرون عودتهم إلى الميناء لاقتناء بعض السلع التي يبيعونها في الأسواق ومحلّاتهم [20]، وهنا ظهر التكامل بين نشاط القرصنة البحرية والنشاط الاقتصادي، فهذا ينمو ويستفحل وذلك يستفيد من الازدهار والتقدم [21] .

جسدت هذه المواجهة صراع قائم حول احتكار المجال البحري بين مجتمع يسعى إلى تأمين سطوته التجارية، وآخر منافس يحاول عرقلة تلك السطوة بعد أن استبعد من المنافسة التجارية، بقطع طرق المواصلات الرابطة بين المركز الأول ونهايته الاقتصادية، أو بالأحرى خلق منفذ حيوي في وسط مجال الامتداد الاقتصادي والسياسي للخصم المتفوق، وذلك بمحاولة تأمين السيادة على البحر بكل الوسائل الممكنة، بما فيها القوة النظامية التي تشكلها الأساطيل الحربية [22].

لقد ظهرت القرصنة كرد فعل على فعل الحظوة التجارية التي تنالها الدول الأوربية دون غيرها بل ظهرت " **كنوع من الحروب الاضطرارية لدى المجتمعات الساحلية المحرومة العاجزة اقتصاديا، والمحتاجة لتحقيق تطور معيشي من خارج البنيات الإنتاجية التي تتوفر عليها، في الوقت الذي تتابع فيه بنوع من التذمر حركة السفن الأجنبية المحملة بالبضائع المرغوب فيها لذاتها أو لقيمتها، كما انه قد يكون دافعها العداء ومناوأة المجتمع التجاري، فتأتي حملاتها كشكل من أشكال حروب الاستنزاف الاقتصادي**" [23].

وبذلك غدا- الربح المادي والنشاط الاقتصادي سمة البحريّة الجزائريّة في هذه المرحلة فأضحت مؤسسة كزمومبولية مستقبلة لكل التقنيين الجيّدين والمغامرين الجريئين، وهكذا ابتعدت البحريّة الجزائريّة عن الروح التي كانت تحرّكها في البداية، وأعطت في تطوّرها طرازا خاصا وطابعا معينا لمدينة الجزائر في العصور الحديثة [24]، وقد بدأت القرصنة تتحكّم في النظام المالي، ويقوم عليها البناء الاقتصادي للجزائر [25]، وبالتالي زاد اهتمام السلطة الحاكمة بالمسائل الخارجية على حساب الأمور الداخليّة للبلاد باعتبار أنّ الدولة كانت تعتمد إلى حد كبير على ما توفّره البحريّة من أرباح وأسرى، وما تفرضه هيمنتها البحريّة من إتاوات وهدايا وترضيات دولية [26]، وفي هذا يقول المؤرّخ أفير: "**لقد كانت القرصنة بمثابة الدخل الوحيد للجزائر التي كانت حكوماتها تدعمها وتحميها باستمرار**" [27]. وبذلك طرأ على القرصنة نمو كبير وأصبح لها تأثير قوي على اقتصاد البلاد والمجتمع الجزائريّ، إنّ تنظيم القرصنة أصبح جهازا واضح المعالم، وصارت له قواعد ثابتة وتقنيات متجددة ووسائل ضخمة متزايدة [28].

ثانيا – البعد الاقتصادي لنشاط البحرية الجزائرية خلال القرن السابع عشر

شكل القرن السابع عشر عصر البحريّة الجزائريّة الذهبيّ فقد اتسع نشاطها ليغطي جل البحر المتوسط، كما امتد إلى سواحل أوربا الشمالية والبرازيل وأيسلندا والأراضي الجديدة [29]، ففي الفترة بين (1627-1621م)، كان في الجزائر عشرون ألف أسير منهم فلامنديون، وإيقوسيون وإنكليز، ودنماركيون، وإرلنديون، وهنغاريون، وإسبان، وفرنسيون، وإيطاليون، وسوريون، ومصريون، ويابانيون، وصينيون، وأناس من إسبانيا الجديدة، وإثيوبيا، فكلّ أمّة كان لها في الجزائر طابور من الأسرى، ومن المرتدين [30] (العلوج) وتجاوزت الغنائم في أوائل هذا القرن ما قيمته ثلاثة ملايين جنيه [31]. ففي بداية القرن السابع عشر أصبحت الجزائر مدينة في حجم المتوسط الذي مدّت فيه شباك قراصنتها حتى سواحل إنكلترا وسواحل إيسلندا، لقد شكّلت ظاهرة عالمية أدّت إلى ولادة مؤسّسات لاسترجاع الأسرى منها وافتدائهم، وعملية تبادل الأسرى والسلع غيّرت من جغرافية الأسواق والتجارة فولّدت روابط واتصالات ووسطاء [32].

وكنتيجة للأرباح التي جنتها الدولة من جراء تعاطيها للقرصنة التي نشّطت دواليب الاقتصاد، تطوّر الأسطول الجزائري [33] في ظرف نصف قرن، فخلال الفترة الممتدة ما بين (1529 -1579م)، كان الأسطول يضاهي خُمس أو رُبع مجموع الأسطول العثماني [34]. أمّا في النصف الأول من القرن السابع عشر، فقد غدا الأسطول الجزائريّ يشكّل ما يعادل ثلث أو نصف الأسطول الخلافة العثمانية [35]، ففي هذه الفترة المفصليّة اتخذت القرصنة طابع المؤسسة الخاصة من أجل الربح بصورة شديدة الوضوح مدعمة وفي بعض الحالات ممولة من قبل مختلف أطياف المجتمع، فكانت سفن القرصنة إما ملكية لكبار القراصنة والحكام، أو لشركات ذات أسهم يتم فيها توزيع الغنائم حسب القواعد والعرف المتبع آن ذاك.

لقد كان السواد الأعظم من سفن الأسطول تملكه طائفة الرياس، وهو ما أدى إلى ازدهار القرصنة وتوفيرها لأرباح كبيرة لأصحابها خاصة مع مستهل المرحلة الثانية، فكان من المنطقي استفحال عمليات القرصنة وارتفاع في عدد السفن المخصّصة لها في العقود القادمة،

إلاّ أنّها وكأي مؤسسة من المؤسسات الاقتصادية الخاصة تسعى إلى الرّبح [36] الذي يؤدي إلى نمو وتطور المؤسسات الاقتصادية فكان للبحرية الجزائرية مردوديات مالية عالية، وعائدات اقتصادية هامة دفع بمختلف الحكام الذين تعاقبوا على حكم الجزائر إلى إدراج أولوياتهم الاهتمام بهذه المؤسسة التي أضحت الشريان الابهر للاقتصاد الجزائري[37] "**فقد كانت القرصنة تستفيد كثيرا من المساعدات المباشرة وغير المباشرة التي كانت الدولة تتكفل بها، فوسّعت ووطّدت المنشآت الخاصة بالميناء والترسانة والأرصفة والمخازن والمستودعات وغيرها من المنشآت البحرية... وكان للحكّام مصلحة مباشرة في تنمية القرصنة سواء باعتبارهم من أرباب السفن أو لكونهم أكبر الملّاك لآلاف العبيد الذين كانوا يستعملون كمجدفين في هذه السفن... كما كان الباشا الذي له مثل كلّ كبار الحكّام نصيب في القرصنة، وقد تكون عدّة سفن ملكا خاصا له، ... كما كانت القرصنة تضمن تشغيل ربع القوّة العاملة في الجزائر...**" [38].

لم تؤد البحرية دور المؤسسة الاقتصادية فحسب، بل جسدت قوة الجزائر التي أظهرتها لفرض احترامها على مختلف الأمم والدول، كما عملت على حماية والتصدي لمختلف الحملات التي جردتها المماليك الأوربية بهدف تدمير الجزائر. لم يقتصر دور البحرية في الدفاع فحسب، بل تعدت ذلك بمهاجمة سواحل الدول المعادية، فقد ركّزت جهدها ضدّ عدوّ الإسلام التقليدي ألا وهي الإمبراطورية الإسبانية، حيث كانت غاراتها على الجزر والسواحل ومختلف الممتلكات الإسبانية مستمرة ومتصاعدة، إلى درجة عجزت فيه العديد من الخطوط الدفاعية التي اتّخذتها الحكومة الإسبانية أن تحول دون نجاح هجمات البحريّة الجزائريّة، مما دفع ببعض سكّان القرى الساحلية إلى هجرة منازلهم نحو الدّاخل، كما أوقفت هذه الغارات ازدهار هذه المناطق التجارية.

لقد تمكن رياس البحرية الجزائرية من مهاجمة حلفاء الإسبان فتعرضوا لسواحل سردينيا وصقليّة ونابولي وهدّدوا الملاحة البحريّة التجارية بين ممتلكات الإمبراطورية في إسبانيا وإيطاليا في الحين لم تتمكن هذه الدول من الرد عليهم إلا بتجريد حملات بحرية لقصف مدينة الجزائر.

علق هيدو على هذه الظاهرة بقوله: "...**كان القراصنة (الجزائريون) يبحرون أثناء الشّتاء والرّبيع ويطوفون في البحر من الشرق إلى الغرب ساخرين من سفننا التي كان بحّارتها في ذلك الوقت يتسلون باللهو والقصف في الموانئ؛ وكان القراصنة يعرفون أنّ السفن المسيحيّة الثقيلة هذه لا تستطيع أن تحلم بمطاردة سفنهم الخفيفة وأن تمنعها من النهب والسرقة**" [39]. ساهمت البحريّة الجزائريّة ورياسها في دعم وتطوير الاقتصاد، فجعلت من مدينة الجزائر مدينة ثريّة مزدهرة على غرار المدن الأوربية المتوسطية، وفي هذا يقول الإخباري الجزائري ابن الرقية التلمساني: "...**الجزائر عامرة، كثيرة الأسواق...كثيرة الجند حصينة...ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصفون بالشّجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النّصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدّو. فبلادهم بذلك أفضل من جميع بلاد إفريقية وأعمر وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأجود سلعة ومتاعا حتى أنّهم يسمونها (إسطنبول الصغرى)**" [40].

كان مفتاح عظمة الجزائر في عصر القرصنة يكمن في وضعيتها الجذابة الخاصة بها التي استقطبت واحتضنت مختلف العناصر الراغبة في الانتماء لها دون تميز ديني أو عرقي، فرسمت عنها صورة فريدة من نوعها في تاريخ البحر الأبيض المتوسط. وقد أعطى أحد نبلاء فرنسا، وهو السيد دوغرامي حينما كان في طريقه سنة 1619م، إلى القسطنطينية في مهمة رسمية انطباعا حيّا عن تلك الجاذبية التي ميزت مدينة الجزائر في قوله: "**مدينة الجزائر ذلك السوط المسلّط على العالم المسيحي، إنّها رعب أوربا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر**" [41]، كما وصف التّاجر الإنجليزي وليم دافيس الجزائر بقوله: "**المدينة القويّة الرائعة**» [42]، ولعلّ أشدّ الرحالة انبهارا برخاء وغنى وثراء الجزائر هو مسكاريناس الذي يقول: "... **ولا أوفر فاكهة ولا أكثر تزوّدا بالمأكولات رخيصة السعر، ولا أغنى بالعيون وأطيب جوّا وأثرى بالنقود من هذا البلد**" [43]. وهنا يجب أن نشير إلى أن القرصنة التجارية لم تكن حكرا على البحرية الجزائرية فحسب بل تعاطتها جميع الأجناس والأقطار الذين كانوا يسعون من

وراء أعمالهم إلى تحقيق مكاسب مادية، فروح الكسب وطعم الربح التي يغذاها الأسر وتجارة الرقيق كانت في الحقيقة هي الحوافز الكبرى لتفعيل الجزائر ومختلف الدول الساحلية لنشاط القرصنة، وقد ذهب كاستري إلى حد التأكيد بأنه:" ... **لولا الربح المحقق والنتائج عن الفدية أو التبادل الأسرى لما كان هناك قراصنة على شواطئ المغرب** ..." (44).

إنّ الرفاهية الاجتماعية التي شهدتها الجزائر والتي استمرّت إلى غاية منتصف القرن السابع عشر، والرّخاء الذي سادها، لم يكن إلّا تحصيلا حاصلا لنشاط البحريّة الجزائريّة والمغامرين الجزائريين الذين طبعوا هذه الفترة بطابعهم.

استهل القرن السابع عشر بانتهاء الحروب الدينية الكبرى بين الإمبراطوريات العظمى، في المتوسط وهي حرب حضارية كبرى (45) جُسِدتّ بوازع ديني محض، وما إن انتهت حتّى توجه محاربوها وتجّارها ورجالها وسفنها، توجهوا جميعا إلى الحروب الصغرى التي شكّلت القرصنة وجهها الأبرز.

الخاتمة

شهد العالم وخاصة أوربا خلال القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر تغيرات جذرية، عجزت الجزائر عن مواكبتها، هذه التغيرات التي جاءت كنتيجة لإرهاصات حيوية المجتمع الأوربي وتطوره الحضاري، أفصحت في النهاية عن ميلاد قوة جديدة تختلف في طبيعتها السياسية والاقتصادية والعسكرية عن القوى التي كانت واجهتها الجزائر من ذي قبل أثرت هذه التطورات والمتغيرات على البحرية الجزائرية، فغدت تسير ببطء نحو ملكية الدولة للسفن البحرية، بهدف حماية المعاهدات التي تربط الجزائر بمختلف الدول، هذه المعاهدات التي كان الرياس في عدة مواضع يمقتونها ويخترقونها، في سبيل الثراء الذي تدره عليهم عمليات القرصنة، وبهذا تكون البحرية الجزائرية مع مستهل هذه الفترة قد دخلت مرحلة المخاض بين الحكومة و الرياس حيث عملت الأولى على إرساء قواعد السلام مع الأمم بهدف تحقيق دخل ثابت للدولة من خلال الإتاوات والهدايا التي تلتزم بدفعها الأمم التي تبرم السلام مع الجزائر، بينما حاولت الثانية أن تبقى الجزائر في حرب مع مختلف الأمم الأوربية لتحظى بفرصة مهاجمة

سفنها التجارية التي تدر عليها أموال كبيرة، ولكن وفي النهاية تمكنت السلطة من تجريد الرياس من اعتماد القرصنة لضمان احترامهم للمعاهدات المبرمة، وبهذا بدأت تتحول البحرية الجزائرية من مؤسسة خاصة تعمل لحسابها الخاص وفق مرجعية وقوانين الدولة، إلى مؤسسة عامة تسيرها وتوجهها الدولة بمقتضى سياستها الخارجية.

الهوامش:

(1) للاستفاضة حول تاريخ البحرية في بلاد المغرب العربي والأندلس أي قبل الفتح العثماني للمنطقة راجع: احمد مختار، العبادي، وآخرون: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، لبنان، 1969م.

(2) للاستفاضة حول ظروف نشأة البحرية الجزائرية أنظر: محمد ألأمين، عطلي: نشاط البحرية الجزائرية في القرن السابع عشر وأثره في العلاقات الجزائرية الفرنسية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 2011- 2012م، ص (42- 46).

(3) إن اهتمام الجزائر بتطوير البحرية كان نتيجة للأخطار الخارجية المحدقة خاصة من طرف اسبانيا والبرتغال خلال القرن 16 و17م. أنظر:

- Boyer, P : Des Pacgas Triennaux à la révolution d'Ali Khodja Dey 1571-1817, in(R-H), N : 244, 1970, p 101.

(4) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1500- 1830م، ج1، دار الغرب، الجزائر، 1988م، ص 198.

(5) حنيفي، هلايلي: بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، دار الهدى، الجزائر، 2007م، ص 50.

(6) مبارك محمد، الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م، ص 160.

(7) BRAUDEL (Fernand), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II .Tome 2, Paris, 1976, p. 122.

(8) المنور، مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، القرصنة الأساطير والواقع، ج2، دار القصبة للنشر، الجزائر،2009م، ص 193.

(9) المرجع نفسه، ص 200.

(10) مولود قاسم، نايت بالقاسم: شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ط2، ج2، دار الأمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 71.

(11) محمد خير، فارس: تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، دار الشرق للنشر والتوزيع، سوريا، 1969م، ص 92.

(12) فرنالد بروديل: البحر الابيض المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب مروان أبي سمراء، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر، بيروت، 1993م.، ص 153.

(13) Nora, Lafi, : « Salvatore, Bono, Corsari nel mediterraeo. Christianie musulmani fra, Guerra, Schiavithu commercio » Revue du, Monde musulman et de la méditerranée. Volume 68. N° 01, 1993, P 302.

(14) أوليجركية، تعني حكم الأقلية، حيث تكون السيادة بين أيدي بعض الأشخاص أو بعض العائلات.

(15) عبد القادر، جغلول: تاريخ الجزائر الحديث دراسة سوسيولوجية، تعيب فيصل عباس، مراجعة خليل أحمد خليل، ط3، د-م-ج، الجزائر، 1983، ص (42، 43).

(16) حمزة إسحاق، زيتوني: البحرية الجزائرية وتأثيرها في العلاقات الجزائرية الفرنسية السياسية (1519 – 1800م)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، 2011 – 2012م، ص 106.

(17) عبد القادر، جغلول: المرجع السابق، ص (42، 43).

(18) حسن، أميلي: الجهاد البحري بمصب أبي الرقراق خلال القرن السابع عشر ميلادي، دار ابي الرقراق، للطباعة، المملكة المغربية، 2006م، ص (53، 54).

(19) Lafi, Nora : Op. Cit. P 302.

(20) أرزقي، شويتام: المجتمع الجزائري وفعاليته في العهد العثماني (1519-1830)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 169.

(21) كورين، شوفالييه: المرجع السابق، ص 49.

(22) حسن، أميلي: المرجع السابق، ص 54.

(23) المرجع نفسه، ص 54.

(24) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 369.

(25) Henry Brongniart : Les corsaires et la guerre maritime, Éditeur A. Challamel, 1904, p 22.

(26) ناصر الدين، سعيدوني: النظام المالي للجزائر....، ص 66.

(27) Vincent, Xavier Labat,: «La course et corso en méditerranée du XVI, au XIX siècle» Revue Clio, Août. 2002. www.Clio.fr. P 2.

(28) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 191.

(29) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 92.

(30) فرنان، بورديل: المرجع السابق، ص 153.

(31) محمد خير، فارس: نفس المرجع، ص 92.

(32) فرنان، بورديل: المرجع السابق، ص 153.

(33) تعاطت الجزائر ومختلف الدول الساحلية القرصنة البحرية قبل وصول العثمانيين بل حتى في العصور الوسطى، راجع، رفيق، بركات: فن الحرب البحرية في تاريخ العربي الإسلامي منشورات جامعة حلب، سوريا، 1995م.

(34) حول نشأة البحرية العثمانية راجع: محمود السيد، الدغيم: أضواء على البحرية الإسلامية العثمانية، ملتقى دولي تحت عنوان، الحضارة الإسلامية وعالم البحار، من 06- إلى 08 نوفمبر 1993م، ص 374.

(35) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 232.

(36) حول ثراء رياس البحر خلال القرن السابع عشر أنظر:

Khiari, F : Développements Historique et contradictions de la formation sociale du pachalik d'Alger de 1570 à 1670, Une approche socio-économique à partir de documents internes et inédit, Diplôme de Doctorat, Paris VII, 1990, p (192- 202).

(37) المنور، مروش: المرجع السابق، ص (201، 202).

(38) المرجع نفسه، ص (202، 203).

(39) محمد خير، فارس: المرجع السابق، ص 91.

(40) ابن رقية التلمساني، الجديري: الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، المكتبة الوطنية الجزائرية، مخطوط رقم 1626، ص (1، 18).

(41) وليم، سبنسر: المرجع السابق، ص 11.

(42) المنور، مروش: المرجع السابق، ص 356.

(43) المرجع نفسه، ص 357.

(44) روجي، كواندرو: المرجع السابق، ص 22.

(45) حول تاريخ الصراع الحضاري الديني في المتوسط بين المسلمين والمسيحيين راجع: عز، معنينو: قضايا أسرى الجهاد في الرحلة السفارية، المؤتمر الدولي الأول، الدوحة، قطر، 2010.